مراجعة كتاب

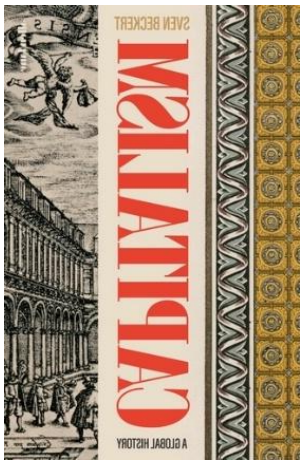

سْـــفين بيكرت. الرأســـمـاليـة: تاريخ عالمي

المراجع: سياستيان رويو**

ترجمة: مصباح كمال***

Sven Beckert. *Capitalism: A Global History*. New York: Penguin, 2025. xxi + 1,325 pp. $49 (hardcover), ISBN 978-0735220836.

سفين بيكرت. الرأسمالية: تاريخ عالمي. نيويورك: بنغوين، 2025. 21 + 1325 صفحة. 49 دولارًا (غلاف مقوى)، ISBN 978-0735220836.

Reviewed for EH.Net by Sebastián Royo, Clark University.

في هذا التاريخ الشامل للرأسمالية، يُحلل بيكرت ببراعة تاريخها ليُفسر تجلياتها المتنوعة. لفهم "الثورة الرأســمالية"، يتتبع تطورها من جذورها في الشــرق الأوسـط وآسـيا، مرورًا بالاسـتعمار، ثم الرأسـمالية الصـناعية في بريطانيا، وصـولًا إلى العصـر الذهبي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية، وانتهاءً بعالمنا المالي المعاصـر. يسـتخدم بيكرت "جزرًا" حقيقية ومجازية لتصـوير تاريخ

الرأسمالية، حيث تواصلت هذه الجزر فيما بينها، وانتشرت في المناطق النائية، وربطت شبكاتها بشبكات أخرى، حتى اندمجت في نهاية المطاف. يُضفي بيكرت على هذه القصة المعقدة نطاقًا واسعًا من الأدلة النوعية والكمية، وينسج سردًا آسرًا يجمع بين التاريخ الاقتصادي والسياسي وصور الأفراد والشركات التي شكلت (وتأثرت) بتطور الرأسمالية، مُضفيًا طابعًا إنسانيًا على قصصهم، واصفًا الأماكن الرائعة التي حققوا فيها ثرواتهم.

تكشف دراسة بيكرت لتاريخ الرأسمالية عن عددٍ من الثيمات المركزية. أولًا، الرأسمالية عملية ديناميكية dynamic process تمتد لقرون، وليست كيانًا ثابتًا. فهي تُحدث ثورة مستمرة في البنى الاقتصادية، وتُدمر باستمرار الأساليب القديمة لخلق أساليب جديدة، مما يُعزز المنافسة وتراكم رأس المال والابتكار التكنولوجي المتواصل.

ثانيًا، الرأسمالية مرنة. في كثير من الأحيان (مثل الكساد الكبير والركود العظيم) اعتُبرت ميتة. في عام 1942، تنبأ الخبير الاقتصادي بجامعة هارفارد، جوزيف شومبيتر، بأن الرأسمالية لن تنجو، لكنه كان مخطئًا. لقد تغيرت الرأسمالية وصمدت.

ثالثًا، استمرت الرأسمالية إلى حد كبير بفضل ديناميكيتها ومرونتها وقدرتها المذهلة على التكيف. بالنسبة لبيكرت، لا تكمن تاريخية الرأسمالية في طول عمرها فحسب، بل في قدرتها على إعادة توظيف السوابق التاريخية لمعالجة الأزمات المعاصرة والمستقبلية.

رابعًا، خلافًا للتاريخ السابق الذي اعتبر الرأسمالية اختراعًا أوروبيًا، يُبين بيكرت أن الرأسمالية نشأت كظاهرة عالمية، ويؤكد على تاريخها العالمي ونطاقها الواسع. فعلى مدى خمسة قرون، كان تحول إمبراطورية رأس المال عالميًا، حيث امتدت التطورات في أقصى بقاع العالم لتُحدث تحولات جذرية في أماكن أخرى (ص 975).

خامسًا، تتميز الرأسمالية بتنوعها. ففي رواية بيكرت، كانت الاختلافات هي المحرك الأساسي للرأسمالية العالمية. فالرأسمالية البريطانية تختلف اختلافًا كبيرًا عن الرأسمالية الصينية، ولكل منهما خصائصها ونقاط قوتها وضعفها المؤسسية.

سادساً، لم تكن هذه الأشكال من الرأسمالية مستدامة. بل على العكس، استندت كل مرحلة من مراحل الرأسمالية إلى تسوية بين شكل معين من أشكال رأس المال، والطبقة العاملة، وتوازن القوى بين رأس المال والعمل والدولة. وقد مارست مراكز رأس المال الجديدة ضغوطاً على المناطق الريفية السابقة، مما أدى إلى تآكلها من الخارج إلى الداخل، ونتج عن ذلك اضطراب. على سبيل المثل، بحلول سبعينيات القرن الماضي، بدأت المراكز الصناعية الرئيسية في تقويض العقد الاجتماعي، وقادت الشركات حملة إعادة التنظيم المكاني للصناعات التحويلية، وإرساء نموذج نيوليبرالي عالمي جديد، مع ما ترتب على ذلك من عواقب اجتماعية وخيمة على فرص العمل في القطاعين الصناعي والتحويلي في الشمال. في الواقع، في كثير من الأحيان، عندما بدت أنظمة اقتصادية وأشكال معينة من الرأسمالية دائمة لا جدال فيها، انتهى بها المطاف لتصبح مجرد واحدة من مراحل تاريخية عابرة عديدة في تطور الرأسمالية على مدى خمسمائة عام. وقد أدت الأزمات والصراعات والانتفاضات، و/أو ظهور معارضة فكرية، وأفكار جديدة، وخاصة تحالفات جديدة، إلى تغييرات جوهرية. وأدت التغيرات في تكوين رأس المال إلى تحولات في العلاقة بين رأس المال والإقليم والدول. في سبعينيات القرن التاسع عشر، كانت رؤوس الأموال مرتبطة بالإمبراطوريات والدول القومية التي سعت إلى احتكارها. وفي سبعينيات القرن العشرين، انطلقت رؤوس الأموال وتحررت من الدولة القومية، مما أدى إلى ظهور نظام إنتاج جديد: العولمة.

سابعًا، لم يكن الحجم شرطًا دائمًا. ففي العصور الوسطى، لعبت الدول الصغيرة دورًا محوريًا في تطور الرأسمالية وبرزت بقوة. وأصبح الحجم الكبير، المتمثل في الإمبراطوريات، ميزةً خلال القرن التاسع عشر، ولكن في

العصر النيوليبرالي، عادت دول صغيرة — مثل سويسرا وسنغافورة وهونغ كونغ — لتتبوأ مكانةً بارزةً مرةً أخرى.

علاوةً على ذلك، أدت التغيرات في هياكل رأس المال إلى ظهور أنظمة رأسمالية جديدة. لم تكن الرأسمالية حكرًا على فئة واحدة من رواد الأعمال. بل على العكس، يُبين بيكرت كيف أدت المراحل الجديدة للرأسمالية إلى ظهور فئات جديدة من رواد الأعمال: التجار، وأقطاب صناعة الصلب، وأقطاب صناعة السيارات، ومستثمرو المحافظ، والمخترعون المعاصرون، وتجار التجزئة.

يُبين بيكرت بالتفصيل كيف تغيرت جغرافية رأس المال. فعلى سبيل المثل، يصف الكتاب مركزية أوروبا في التاريخ الحديث للرأسمالية، ولكنه يُشدد على أن المستقبل سيتشكل إلى حد كبير بفعل آسيا، التي بدا صعودها المذهل أمرًا لا يُتصور عندما كانت أوروبا أو الولايات المتحدة في قلب الاقتصاد العالمي. لم يقتصر التغيير على جغرافية الرأسمالية فحسب، بل شمل تركيبتها أيضًا. يُبين الكتاب التحول من رأس المال الصناعي إلى الخدمات والتمويل. وقد سهّل رواد تراكم رأس المال الأوائل - من تجار وممولين وشركات مرخصة من الدولة - الانتقال من النزعة التجارية إلى الرأسمالية الصناعية عبر توسيع نطاق منطق السوق ليشمل الريف وقطاعات التصنيع. وبالمثل، مع استمرار تراجع رأس المال الصناعي، لم يعد رواد الأعمال المعاصرون (الممولون والتجار!) والشركات منخرطين بشكل مباشر في إنتاج السلع، بل يركزون على شكل جديد من الرأسمالية التجارية المُمولة financialized، حيث يقومون بتمويل وتصميم وتنظيم الإنتاج والتجارة وبناء شبكات إنتاج عالمية. ويُمثل التمويل جوهر هذه الحقبة الأخيرة من الرأسمالية، وهو ينتشر في جميع أنحاء العالم بحثًا عن استثمارات مربحة جديدة وعوائد أعلى.

بينما يُمثل الديناميكية والتغيير جوهر تطور الرأسمالية وتاريخها، يُشدد الكتاب أيضًا على استمراريتها، ولا سيما دور الدولة. يقول بيكرت إن الدولة محورية لنجاح الرأسمالية. فقد وضعت تدخلات الدولة القواعد التي تعمل في ظلها

الرأسمالية. سنّت الدول القوانين، وحررت التجارة، ونظمت الأسواق، وتوسطت بين العمال ورأس المال، وأنشأت منظمات دولية، ووقعت معاهدات، وطورت دول الرفاه، واستثمرت في الصناعة، وغير ذلك. كما يصف بيكرت الصراعات التي أعادت تعريف الاقتصاد السياسي العالمي، والمتجذرة في صراع اجتماعي عالمي، حيث حارب رأس المال والعمال والدولة النظام القديم وسعوا إلى نظام جديد. في هذا الصراع، كان العمال دائمًا في وضع غير مواتٍ لأن رأس المال لعب لعبة عالمية، بينما كان العمال محليين أو وطنيين. لعبت الدول دورًا حاسمًا في التوسط في الصراع بين العمال ورأس المال، وهو دور غالبًا ما تحول، على سبيل المثل من تقييد رأس المال خلال العصر الذهبي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية، إلى تقييد العمال خلال العصر النيوليبرالي. لا يمكن فهم الرأسمالية بدون الدول.

كما سبق القول، تُظهر الرأسمالية قدرة لافتة على التكيّف، ويتجلّى ذلك بوضوح بقدرتها الفائقة على التكيف، لا سيما في علاقتها بمختلف الأنظمة السياسية. فعلى مر التاريخ، كان هناك انفصال بين الأيديولوجيات وتطور الرأسمالية. وقد عملت أشكال مختلفة من الاقتصاد السياسي الرأسمالي، ونجحت، دون مراعاة تُذكر للأنظمة السياسية التي نشأت فيها. ازدهرت الرأسمالية في ظل الديمقراطية، على الرغم من نتائج السوق التي لم تحظَ بشعبية لدى شريحة واسعة من الناس. ومع ذلك، لم تكتفِ الرأسمالية بالبقاء، بل ازدهرت في ظل أنظمة غير ديمقراطية. يُعدّ سرد بيكرت لظهور النيوليبرالية في عهد بينوشيه في تشيلي سردًا بارعًا. وكما يُحذّر، فإن تاريخ الرأسمالية غير العقائدية يجب أن يُخفف من أي تفاؤل بشأن التوافق بين الديمقراطية الليبرالية والرأسمالية. ويُؤكد سرده المُفصّل للنجاح الباهر للرأسمالية في الصين على فكرة أن الاقتصادات الرأسمالية الديناميكية لا تحتاج بالضرورة إلى أن تكون ديمقراطية. كما تميزت الرأسمالية بقدرتها على استقطاب خصومها: فقد بلغت النيوليبرالية ذروتها في عهد كلينتون، وبلير، وشرودر، وجميعهم قادة من يسار الوسط. أصبحت قدرة الدولة على جذب رؤوس الأموال المتنقلة أمراً بالغ الأهمية، مما جعل الدولة سلعة أخرى تحمل علامة تجارية.

كان التقدم التكنولوجي دافعًا أساسيًا لتطور الرأسمالية، ويتميز تاريخها بالثورة المتواصلة في وسائل الإنتاج. يُبرز الكتاب الفرص التي أتاحتها الرأسمالية، فضلًا عن أوجه عدم المساواة التي لا تزال تُهيمن على عالمنا. وكما بيّن توماس بيكيتي في كتابه **رأس المال في القرن الحادي والعشرين**، فإنه كلما تجاوز العائد على رأس المال معدل النمو الاقتصادي، اتسعت فجوة عدم المساواة. ويرصد بيكيرت تركز ثروة البشرية في أيدي شريحة صغيرة من المجتمع. أما الحراك الاجتماعي، الذي كان يُعتبر أمرًا مفروغًا منه، فقد أصبح محدودًا. كما أن الأتمتة والتآكل المتعمد لحقوق العمال ودول الرفاه خلال العقود النيوليبرالية الأخيرة يُحدّان من قدرة الدول على حماية مواطنيها. وقد تضاءلت أيضًا وسائل المقاومة الفعّالة نتيجة لتزايد المنافسة، والاستعانة بمصادر خارجية، والتعاقد من الباطن، والعمل الحر. ونتيجة لذلك، لم تعد أشكال التنظيم التقليدية التي كانت تدعم العمال فعّالة كما كانت. ونتيجةً لذلك، تتزايد ظاهرة البلترة (تحوّل فئات اجتماعية إلى بروليتاريا) proletarianization، والتجريد من الممتلكات، وعدم المساواة، بينما يتراجع متوسط العمر المتوقع ومستويات المعيشة لدى قطاعات واسعة من سكان العالم.

ويتناول بيكرت أيضًا اتساع نطاق الرأسمالية، موضحًا كيف أعادت تشكيل أنظمة العمل، والترتيبات السياسية، والأنظمة الإقليمية، والحياة اليومية. لقد انتشرت النزعة الاستهلاكية على نطاق واسع لدرجة أن الرأسمالية اندمجت في أدق تفاصيل الحياة البشرية. ويعمل منطقها بصرامة تفوق أي دين أو فلسفة أو مشروع شمولي في التاريخ (ص 1059). في الواقع، يبدو أن كل شيء معروض للبيع، حتى العلاقات الإنسانية، والبويضات والأعضاء البشرية.

يُعدّ تاريخ بيكرت للرأسمالية في جوهره إدانة أخلاقية، إذ يُظهر بوضوح قسوة الرأسمالية ووحشيتها. ويُعدّ وصفه للدور المحوري للعبودية في نمو الرأسمالية وتطورها مذهلاً. كما يُشدّد على الدور الحاسم للقوة العسكرية

واستخدام العنف في كل مرحلة من مراحل تطور الرأسمالية. وينتقد بيكرت تحوّل الإنسان إلى "إنسان اقتصادي" وتجسيد لـ"رأس المال البشري"، وكيف أدّى ذلك إلى تسليع معظم جوانب الحياة البشرية، حتى التكاثر. وأخيرًا، يُحذّر من الكوارث البيئية التي تُهدّد وجودنا اليوم، وكيف يُجسّد ظلم نظام يتحمّل فيه أولئك الأقل مسؤولية عن إنتاج التكاليف البيئية الناجمة عن عمل الرأسمالية.

لا نهاية لتاريخ الرأسمالية عند بيكرت. فتطورها متقطع، لا خطي ولا مستمر ولا دوري. ويختتم الكتاب بأمثلة عن الأثرياء الذين يحاولون الانعزال في الجزر هربًا من عدم استقرار الحضارة الإنسانية، وتحقيقًا لأوهامهم، ومواجهةً لأقصى مخاوفهم. وعلى عكس أسلافهم، ينكفئ هؤلاء الرأسماليون على أنفسهم بدلًا من التوسع. وتشاؤمهم لا يبشر بخير للمستقبل. تكمن نقطة ضعف الرأسمالية الرئيسية في الضرورة الهيكلية للتوسع وتراكم رأس المال باستمرار، وقد يكون ذلك سبب زوالها. تاريخيًا، أدت الأزمات الاقتصادية العميقة إلى ظهور نماذج جديدة. فقد أدى الكساد الكبير إلى ظهور السياسات الكينزية، وأدى الركود التضخمي في سبعينيات القرن الماضي إلى ظهور السياسات النقدية والليبرالية الجديدة. على الرغم من الركود الاقتصادي الكبير، الذي قوّض شرعية الرأسمالية والليبرالية الجديدة بشكل كبير، والتحديات الواسعة التي واجهها النظام النيوليبرالي، وصعود الأحزاب القومية العرقية واليمينية، لم يظهر حتى الآن أي نموذج جديد متماسك. ويحذر بيكرت من تصاعد النزعة الحمائية، ومعارضة الهجرة، والسياسات القومية التي تتدخل في شؤون الدولة، والتي بلغت ذروتها في بداية القرن الماضي، وكانت لها عواقب وخيمة على البشرية.

مع ذلك، حتى لو انتهى النظام الرأسمالي، كما يتوقع البعض، يُبين هذا الكتاب أننا ما زلنا تحت رحمة النخب العالمية التي تُعطي الأولوية لمصالحها الخاصة، غالبًا على حساب غالبية الناس. فعلى الرغم من هيمنة الرأسمالية وقوة رأس المال، تستمر المقاومة والانتفاضات في جميع أنحاء العالم بأشكال مختلفة. يُوضح لنا بيكرت أن تاريخ الرأسمالية "غالبًا ما صُنع من هوامشها، لا من

مراجعة كتاب

مراكزها" (ص 1066)، وأن بعضًـــا من أهم التغييرات قادها في كثير من الأحيان المهمشون في العالم.■

* سفين بيكرت أستاذ كرسي ليرد بيل للتاريخ في جامعة هارفارد، حيث يُدرّس تاريخ الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، والتاريخ العالمي. وهو يُشارك كريستين أ. ديسان في إدارة برنامج دراسة الرأسمالية في جامعة هارفارد.
Sven Beckert is Laird Bell Professor of History at Harvard University, where he teaches the history of the United States in the nineteenth century, and global history. With Christine A. Desan, he is the co-director of the Program on the Study of Capitalism at Harvard University.

** سيباستيان رويو أستاذ العلوم السياسية في جامعة كلارك. ومن بين منشوراته كتاب "فشل البنوك وحلها في الاتحاد الأوروبي: دروس لإدارة الأزمات وإطار تأمين الودائع"، من تحرير سيباستيان رويو، وجيوفاني فيري، وإيفا ميكلاسزوسكا (دار روتليدج، سيصدر عام 2026)، وكتاب "لماذا تفشل البنوك: الجذور السياسية للأزمات المصرفية في إسبانيا" (دار بالجريف، 2020).
Sebastián Royo is Professor of Political Science at Clark University. His publications include Bank Failure and Resolution in the EU: Lessons for the Crisis Management and Deposit Insurance Framework, Sebastián Royo, Giovanni Ferri, Ewa Miklaszewska, eds. (Routledge, forthcoming 2026) and Why Banks Fail: The Political Roots of Banking Crises in Spain (Palgrave, 2020).

*** مصباح كمال، كاتب في قضايا التأمين

يمكن قراءة النص الإنجليزي للمراجعة باستخدام هذا الرابط:
Capitalism: A Global History – EH.net

Copyright (c) 2026 by EH.Net. All rights reserved. Published by EH.Net (April 2026). All EH.Net reviews are archived at http://www.eh.net/book-reviews

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر.
http://iraqieconomists.net/ar/